تفسير النسفي

المسمى

بمدارك التنزيل وحقائق التأويل

تأليف

الإمام الجليل

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

المتوفى سنة ٧٠١ هـ

تحقيق

سيد زكريا

الناشر

مكتبة نزار مصطفى الباز

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نهتدي ونستعين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد ـ ﷺ ـ وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وبعد:

فإن شرف أى علم من العلوم يُنال من شرف موضوعه، ومن الغاية التى لأجلها يُدرس، وعلم التفسير هو أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق؛ وذلك للأسباب الآتية:

الأول: أن موضوعه هو القرآن الكريم، كتاب الله الخالد، ودستور الأمة المعجز، مع محاولة لفهمه فهماً صحيحاً على قدر الطاقة البشرية.

الثانى: لأن الغاية منه هو التماس هدايةالقران الكريم فى الآفاق وفى الأنفس، والأخذ بأيدى العباد إلى خالقهم «ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين».

الثالث: وهو أهم الأسباب؛ فلأن القرآن الكريم هو كلام الله، وكلام الله يختلف عن أى كلام من حيث لفظه ومعناه وإعجازه، فعلم التفسير ينال تشريفاً وتعظيماً ليسا لعلم آخر، وذلك لإضافته إلى كتاب الله عزوجل.

وها نحن بصدد التقديم لتفسير عظيم النفع، جم الفائدة، ألا وهو تفسير الإمام: عبدالله بن أحمد النسفى، والذى سماه: **«مدارك التنزيل وحقائق التأويل»** وذاع وانتشر بين الناس باسم **«تفسير النسفى»**.

ومن عظم هذا التفسير، وسعة علم صاحبه أنه يحدد منهجه الذى ارتضاه فى مقدمته فيقول: «قد سألنى من تتعين إجابته كتاباً وسطاً فى التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علم البديع والإشارات، حالياً بأقاويل أهل السنة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل».

وصدق الإمام النسفى فيما قال، فقد التزم بهذا النهج الذى ارتضاه من أول كتابه، فجاء تفسيره جامعاً لعلوم كثيرة من النحو والقراءات والفقه والعقيدة، مستنداً فى ذلك كله إلى القرآن والحديث والشعر وأقوال السلف الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين.

ويهمنا أن نشير فى هذه المقدمة السريعة إلى أن الإمام النسفى ـ رحمه الله ـ كان يتعرض فى تفسيره لآيات الأحكام، ويعرض المذاهب الفقهية فى المسألة، وينتصر لمذهبه الحنفى فيقول: «وهذا دليل لنا» أو «وهو عندنا».

وبعد؛ فإذا كان الإمام النسفى وتفسيره قد درسا من ناحية المنهج أو الاتجاه، فما زال هذا التفسير بحاجة إلى مَنْ يستخرج لنا من درره الكامنة، فى الفقه والعقيدة والقراءات والنحو وغيرها من العلوم. فنسأل الله أن يهيأ لهذا التفسير مَنْ يضيف الجديد، ولا يكرر القديم.

ولا ننسى أن تقدم الشكر لشيخنا مروان محمد الشقار الذى حقق هذا التفسير وأخرجه فى شكل يليق بهذا التفسير وصاحبه، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وبعد، فنسأل الله العلىّ العظيم أن يجعل عملنا فى هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين والمسلمات، وأن يجعله لنا زخراً فى ميزان الحسنات، يوم لا ينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مقدمة المؤلف رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنزه بذاته عن إشارة الأوهام، المقدَّس بصفاته عن إدراك العقول والأفهام، المتصف بالألوهية قبل كل موجود، الباقي بنعت السرمدية بعد كل محدود، الملك الذى طمست سبحات جلاله الأبصار، المتكبر الذى أزاحت سطوات كبريائه الأفكار، القديم الذى تعالى عن مماثلة الحدثان، العظيم الذى تنزه عن مماسَّة المكان، المتعالى عن مضاهاة الأجسام ومشابهة الأنام، القادر الذى لا يشار إليه بالتكييف، القاهر الذى لا يسئل عن التحميل والتكليف، العليم الذى خلق الإنسان وعلمه البيان، الحكيم الذى نزل القرآن شفاء للأرواح والأبدان، والصلاة والسلام على المستل من أرومة البلاغة والبراعة، المحتل فى بحبوحة النصاحة والفصاحة، محمد المبعوث إلى خليقته، الداعى إلى الحق وطريقته، ﷺ، وعلى آله وشيعته، وعلى الآخذين بعهوده وشريعته. «قال» مولانا الشيخ الإمام المعظم، والحبر الإمام المقدم، أستاذ أهل الأرض، محيى السنة والفرض، كشاف حقائق أسرار التنزيل، مفتاح أسرار حقائق التأويل، ترجمان كلام الرحمن، صاحب علم المعانى والبيان، الجامع بين الأصول والفروع، المرجوع إليه فى المعقول والمسموع، حافظ الملة والدين، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أكمل فحول المجتهدين، قدوة قروم المحققين، ذو السعادات والكرامات، أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفى، نفع الله الإسلام بطول بقائه، والمسلمين بيمن لقائه، قد سألنى من تتعين إجابته كتابا وسطا فى التأويلات، جامعا لوجوه الإعراب والقراءات، متضمنا لدقائق علمى البديع والإشارات، حاليا بأقاويل أهل السنَّة والجماعة، خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى استقصاراً لقوة البشر، عن درك هذا الوطر، وأخذاً لسبيل الحذر، عن ركوب متن الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله، والعوائق كثيرة، وأتممته فى مدة يسيرة (وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل). وهو الميسر لكل عسير، وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

فاتحة الكتاب(١)

مكية، وقيل: مدنيـة، والأصح أنها مكية ومدنية، نزلت بمكة حيـن فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة حين حولت القبلة إلى الكعبة. وتسمى أم القرآن؛ للحديث قال عليه السلام: « لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن». ولاشتمالها على المعانى التى فى القرآن. وسورة الوافية والكافية لذلك. وسورة الكنز؛ لقوله ـ عليه السلام ـ حاكيا عن الله تعالى: «فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشى»(٢). وسورة الشفاء والشافية؛ لقوله عليه السلام: «فاتحة الكتاب شفاء من كل داء إلا السام»(٣). وسورة المثانى؛ لأنها تثنـى فى كل صلاة. وسورة الصلاة لما تـروى ولأنها تكون واجبة أو فريـضة. وسورة الحمد والأساس فإنها أساس الـقرآن، قال ابن عباس»(٤) ـ رضى الله عنهـما ـ: إذا اعتللت أو اشـتكيت فعليك بالأساس». وآيها سبع بالاتفاق(٥).

●●﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قراء المدينـة والبصـرة والشام وفقهاؤها عـلى أن التسمية ليسـت بآية من الفاتحة ولا من غـيرها من السور، وإنما كتبـت؛ للفصل والتبرك للابتداء بها، وهو مذهب أبى حنيفة(٦) ومن تابعه ـ رحمهم الله ـ ولذا لا يجهر بها عندهم

(١) فضلها: (أ) روى الإمام أحمد فى المسند أن «أبىّ بن كعب» قرأ على النبى ـ ﷺ ـ أم القرآن، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذى نفسى بيده، ما أنزل فى التـوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته».

(ب) وفى صحيح البخارى أن النبى ـ ﷺ ـ قال لأبى سعيـد المعلى: «لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن: الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته».

(٢) انظر كنز العمال ١/ ٢٥٠١، وفيه: فاتحة الكتاب أنزلت من كنز تحت العرش.

(٣) الدارمى، رواه عبدالملك بن عمير.

(٤) هو الصحابى الجلـيل: عبدالله بن عباس بن عبد المطلب الهـاشمى، ابن عم رسول الله ﷺ ـ كان يقال له: «الحبر»، و«البحر»؛ لكثرة علمه، روى عن النـبى ـ ﷺ ـ كثيراً، وعن معظم الصحابة، وفيه قال ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عبـاس»، قبض رسول الله ﷺ ـ وهو ابن بضع عشرة سنة، وكانت وفاته ـ رضى الله عنه ـ بالطـائف سنة ٦٨هـ أو ٦٩هـ، وصلى عليه محمد ابن الحـنفية، وقال: «اليوم مات ربانى هذه الأمة».

تهذيب التهذيب (٣/ ١٨٠ ـ ١٨٢).

(٥) وآياتها سبع بالاتفاق؛ وذلك لأن البسملة تعد آية من سورة الفاتحة. كذا عند الجمهور، وليست آية من كل سورة.

صفوة التفاسير ١/ ١٢.

(٦) أبو حنيفة: النعمان بن ثابت التيمى الكوفى، الإمام الأعظم، العلم الأشهر، صاحب أقدم المذاهب المشهورة، فقد ولد فى أفضل القرون سنة ٨٠هـ، ورأى أنس بن مالك من الصحابة، وروى عن خلق من كبار التابعين، مناقبه كثيرة، يكفينا هنا قول الإمام الشافعى:

لقد زان البلاد ومن عليها إمام المسلمين أبو حنيفة.

توفى ـ رحمه الله ـ عام ١٥٠ هـ تهذيب التهذيب ٥/ ٦٢٩ ـ ٦٣١.

فى الصلاة. وقراء مكة والكوفة على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعى[1] وأصحابه ـ رحمهم الله ـ ولذا يجهرون بها فى الصلاة، وقالوا: قد أثبتها السلف فى المصحف مع الأمر بتجريد القرآن عما ليس منه، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : «من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله».[2] ولنا حديث أبى هريرة[3] قال: سمعت النبى عليه السلام يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة ـ أى الفاتحة ـ بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ماسأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله ـ تعالى: أثنى على عبدى، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدنى عبدى، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل، فإذا قال ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»[4] ـ فالابتداء بقوله: «الحمد لله» دليل على أن التسمية ليست من الفاتحة، وإذا لم تكن من الفاتحة لا تكون من غيرها إجماعا، والحديث مذكور فى «صحاح المصابيح»[5]، وما ذكروا لا يضرنا؛ لأن التسمية آية من القرآن أنزلت للفصل بين السور عندنا. ذكره فخر الإسلام فى «المبسوط»[6]، وإنما يرد علينا أن لو لم نجعلها آية من القرآن. وتمام تقريره فى «الكافى»[7]، وتعلقت الباء بمحذوف تقديره: باسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأن الذى يتلو التسمية مقروء؛ كما أن المسافر إذا حل وارتحل فقال: باسم الله والبركات كان المعنى: باسم الله أحل وباسم الله أرتحل، وكذا الذابح وكل فاعل يبدأ فى فعله باسم الله كان مضمرا ما جعل التسمية مبدأ له، وإنما قدر

---

(١) الشافعى: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، الإمام المطلبى، القرشى، صاحب المذهب المشهور، المجمع على إمامته وعلو قدره فى الفقه والعلم والعمل، وهو أول من أفرد لعلم الأصول، تلميذ مالك بن أنس، شيخ أحمد بن حنبل، ذاع صيته وطال ذكره لقوة ذهنه، وحدة عقله، حفظ القرآن وهو فى السابعة، وحفظ الموطأ وهو فى العاشرة، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة، ولد سنة ١٥٠ هـ، وتوفى سنة ٢٠٤هـ.

تهذيب التهذيب ٥/ ٢٠ ـ ٢٣.

(٢) ولنا «حديث أبى هريرة» يقصد المؤلف ـ رحمه الله ـ من: «لنا»: علماء الحنفية؛ وذلك لأنه حنفى المذهب يعرض آراء المذاهب فى المسألة الفقهية، ثم ينتصر لمذهبه الحنفى.

(٣) هو راوية الإسلام، أبو هريرة، المختلف فى اسمه ونسبه اختلافاً كثيراً، أشهرها: عبدالرحمن بن صخر الدوسى اليمانى، وكما كان من حفاظ الصحابة، كان من فقرائهم، فقد كان من أهل الصفة، كناه الرسول ـ ﷺ ـ بهرة كان يحمل أولادها.

تهذيب التهذيب ٦/ ٤٧٩ ـ ٤٨٢.

(٤) حديث «قسمت الصلاة...» رواه البخارى.

(٥) يقصد كتاب «مصابيح السنة» للإمام البغوى (ت: ٥١٠هـ).

(٦) هو أحمد بن الحسين بن مهران النيسابورى، أبو بكر، فخر الإسلام، إمام فى القراءات، وكتابه المشهور «المبسوط فى القراءات العشر»، ولد عام ٢٩٥ هـ، وتوفى عام ٣٨١. غاية النهاية ١/ ٤٩.

(٧) الكافى: هو اسم كتاب له أيضاً، وهو شرح لكتابه «الوافى» فى الفروع.

المحذوف متأخرا؛ لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به، وكانوا يبدءون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات وباسم العزى. فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله ـ عز وجل ـ بالابتداء وذا بتقديمه وتأخير الفعل، وإنما قدم الفعل فى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[1]. لأنها أول سورة نزلت ـ فى قول ـ، وكان الأمر بالقراءة أهم فكان تقديم الفعل أوقع، ويجوز أن يحمل اقرأ على معنى افعل القراءة وحققها كقولهم: فلان يعطى ويمنع. غير متعد إلى مقروء به، وأن يكون باسم ربك مفعول اقرأ الذى بعده، واسم الله يتعلق بالقراءة تعلق الدهن بالإنبات فى قوله ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[2]. على معنى متبركا باسم الله أقرأ. ففيه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يعظمونه، وبنيت الباء على الكسر لأنها تلازم الحرفية والجر فكسرت لتشابه حركتها عملها، والاسم من الأسماء التى بنوا أوائلها على السكون كالابن والابنة وغيرهما فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة تفاديا عن الابتداء بالساكن تعذرا، وإذا وقعت فى الدرج[3]. لم يفتقر إلى زيادة شىء، ومنهم من لم يزدها واستغنى عنها بتحريك الساكن فقال: سِمٌ وسَمٌ. وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز كيد ودم، وأصله سمو بدليل تصريفه كأسماء وسمى وسميت، واشتقاقه من السمو وهو الرفعة؛ لأن التسمية تنويه بالمسمَّى وإشادة بذكره، وحذفت الألف فى الخط هنا وأثبتت فى قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. لأنه اجتمع فيها أى فى التسمية مع أنها تسقط فى اللفظ لكثرة الاستعمال وطولت الباء عوضاً عن حذفها، وقال عمر بن عبدالعزيز[4] لكاتبه: طول الباء وأظهر السينات ودور الميم. والله أصله الإله، ونظيره الناس أصله الأناس حذفت الهمزة وعوض منها حرف التعريف، والإله من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب، ثم غلب على الثريا، وأما الله ـ بحذف الهمزة ـ فمختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره، وهو اسم غير صفة؛ لأنك تصفه ولا تصف به لا تقول ـ شىء إله كما لا تقول: شىء رجل وتقول الله واحد صمد؛ ولأن صفاته تعالى لابد لها من موصوف تجرى عليه،

---

(١) سورة «العلق»، الآية (١).

(٢) سورة «المؤمنون»، الآية (٢٠).

(٣) فى الدّرج: أى فى درج الكلام، مثل قولنا: عمر بن الخطاب بإسقاط همزة ابن (المعجم الوسيط ١/ ٢٧٧).

(٤) هو أمير المؤمنين، وخامس الخلفاء الراشدين: عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم، القرشى، الأموى، أعدل خلفاء بنى أمية، وأكثرهم ورعاً وعلماً وعدلاً، طلب العلم صغيراً، كان منعماً قبل الخلافة، ولكنه آثر الزهد والتقشف بعد توليه إياها، ويكفيه ما قاله البخارى: «قال مالك، وابن عيينة: عمر بن عبدالعزيز إمام».

ولد سنة ٦١ أو ٦٣هـ، ومات ـ رحمه الله ـ سنة ١٠١هـ.

تهذيب التهذيب (٤/ ٢٩٩، ٣٠٠).

فلو جعلتها كلها صفات لبقيت صفات غير جارية على اسم موصوف بها، وذا لا يجوز، ولا اشتقاق لهذا الاسم عند الخليل [1] والزجاج[2] ومحمد بن الحسن[3]. والحسين بن الفضل[4]، وقيل: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم: «أَلِهَ» إذا تحير ينتظمهما معنى التحير والدهشة؛ وذلك أن الأوهام تتحير فى معرفة المعبود، ويدهش الفطن؛ ولذا كثر الضلال وفشا الباطل وقل النظر الصحيح، وقيل: هو من قولهم: «أَلِهَ، يَأْلَهُ، إلاهاً» إذا عبد؛ فهو مصدر بمعنى مألوه أى: معبود، كقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾[5]. أى: مخلوقه، وتفخم لامه إذا كان قبلها فتحة أو ضمة. وترقق إذا كان قبلها كسرة، ومنهم من يرققها بكل حال ومنهم من يفخم بكل حال، والجمهور على الأول. و(الرحمن) فعلان: من رحم، وهو الذى وسعت رحمته كل شىء؛ كغضبان من غضب، وهو المتلىء غضباً، وكذا (الرحيم) فعيل منه؛ كمريض من مرض، وفى الرحمن من المبالغة ماليس فى الرحيم؛ لأن فى الرحيم زيادة واحدة، وفى الرحمن زيادتين، وزيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى[6]، ولذا جاء فى الدعاء: (يا رحمن الدنيا) لأنه يعم المؤمن والكافر (ورحيم الآخرة) لأنه يخص المؤمن، وقالوا: الرحمن خاص تسمية؛ لأنه لا يوصف به غيره، وعام معنى لما بينا، والرحيم بعكسه؛ لأنه يوصف به غيره ويخص المؤمنين؛ ولذا قدم الرحمن، وإن كان أبلغ، والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى، يقال: فلان

---

(١) الخليل بن أحمد، الأزدى، الفراهيدى، ويقال: الباهلى، أبو عبد الله البصرى، عالم غزير العلم، كأنه بحر غزير، يشهد له التاريخ أنه صاحب السبق فى علوم كثيرة؛ فهو صاحب علم العروض بلا منازع ومعجم «العين» هو أول المعاجم، وهو كذلك ذا باع طويل فى علوم اللغة بفروعها المختلفة، كانت وفاته سنة ١٧٥ هـ، وقيل غير ذلك.

تهذيب التهذيب (٢/ ٩٨، ٩٩)

(٢) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن السرى بن سهل، علم من أعلام العربية، لا يقل قدراً عن الخليل بن أحمد فى علوم اللغة.

ولد عام ٢٤١هـ، وتوفى عام ٣١١هـ. الأعلام (١/ ٤٠).

(٣) هو محمد بن الحسن بن فرقد، أبو عبدالله الشيبانى، مولاهم، كان إماماً فى الفقه والأصول، وقد جمع بين الفضلين، فهو صاحب أبى حنيفة وتلميذه، وهو الذى نشر علمه، وهو كذلك صاحب أصح الروايات للموطإ عن مالك بن أنس، ولد عام ١٣١هـ، ومات عام ١٨٩هـ

الأعلام (٦/ ٨٠).

(٤) الحسين بن الفضل بن عمير البجلى، كان ـ رحمه الله ـ إماماً فى التفسير، وكان رأساً فى معانى القرآن، ولد عام ١٧٨هـ ومات عام ٢٨٢هـ.

الأعلام ٢/ ١٥٢.

(٥) سورة «لقمان»، الآية (١١).

(٦) من أقوال أهل الصرف والاشتقاق: كل زيادة فى المبنى تؤدى إلى زيادة فى المعنى.

عالم ذو فنون تحرير؛ لأنه كالعلم لما لم يوصف به غير الله، ورحمة الله: إنعامه على عباده، وأصلها العطف، وأما قول الشاعر في مسيلمة[1]: وأنت غيث الورى لازلت رحمانا؛ فباب من تعنتهم في كفرهم. ورحمن غير منصرف عند من زعم أن الشرط انتفاء فعلانة إذ ليس له فعلانة، ومن زعم أن الشرط وجود فعلى صرفه إذ ليس له فعلى، والأول الوجه.

●● ﴿الْحَمْدُ﴾: الوصف بالجميل على جهة التفضيل، وهو رفع بالابتداء، وأصله النصب، وقد قرىء بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة في معنى الإخبار؛ كقولهم: شكراً وكفراً، والعدول عن النصب إلى الرفع[2]. للدلالة على ثبات المعنى واستقراره، والخبر ﴿لِلَّهِ﴾ واللام متعلق بمحذوف أي: واجب أو ثابت، وقيل: الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها، تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمده على شجاعته وحسبه. وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح قال:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

أي: القلب، والحمد باللسان وحده، وهو إحدى شعب الشكر، ومنه الحديث: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لم يحمده»[3]. وجعله رأس الشكر؛ لأن ذكر النعمة باللسان أشيع لها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال. ونقيض الحمد: الذم، ونقيض الشكر: الكفران. وقيل: المدح ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال، ككونه باقيا قادراً عالما أبديا أزليا، والشكر ثناء على ما هو منه من أوصاف الأفضال، والحمد يشملهما، والألف واللام فيه للاستغراق عندنا خلافاً للمعتزلة[4]. ولذا قرن باسم الله؛ لأنه اسم ذات فيستجمع

(١) هو الكذاب الآفاق، مسيلمة بن تمامة بن كبير، من الذين ادعو النبوة، ولكنه كان أكثرهم أتباعاً، وأصعبهم على الدعوة الإسلامية، تصدى له أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ في حروب المرتدين حتى انتصر عليه، وقتل عام ١٢هـ، وكان من المعمرين.
الأعلام (٧/ ٢٢٦).

(٢) العدول عن النصب إلى الرفع فيه وجهان من الجمال:
الأول: أن الرفع هو أشرف العلامات الإعرابية وأرفعها كما يقول النحاة؛ و لذلك جاء في سورة الفتح ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا أليق بمقام الله؛ فناسب أشرف العلامات أشرف العهود.
الثاني: أن القول بإضمار فعل محذوف فيه تكليف، وقضية الذكر والحذف من القضايا الشائكة، وما لا يحتاج إلى تكلف أولى مما يحتاج، كما أن الرفع يدل على الثبات والإستقرار كما ذكر المؤلف، رحمه الله.

(٣) رواه عبدالرزاق عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه انقطاع.

(٤) المعتزلة: فرقة من فرق الإسلام؛ مؤسسها واصل بن عطاء (٨٠هـ: ١٣١هـ)، وهو من تلاميذ الحسن البصري (ت: ١١٠هـ) ولكنه اعتزل حلقته؛ فلهذا سموا بالمعتزلة.
وينبني مذهبهم على تحكيم العقل في كل الأمور: حتى السمعيات والمغيبات من الأمور، ولذلك فلهم آراء مخالفة لأهل السنة والجماعة؛ منها: الله يريد الخير ولا يريد الشر، العبد يخلق أفعاله الاختيارية، وكذلك: مرتكب الكبيرة في منزلة بين الكفر والإيمان، وغير ذلك، وبالرغم من مخالفتهم لمنهج=

صفات الكمال، وهو بناء على مسألة خلق الأفعال وقد حققته فى مواضع. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. الرب: المالك، ومنه قول صفوان[1] لأبى سفيان[2]: لأن يربنى رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن. تقول: ربه يربه ربا فهو رب، ويجوز أن يكون وصفا بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل: ولم يطلقوا الرب إلا فى الله وحده، وهو فى العبيد مع التقييد: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[3]. قال: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[4]، وقال الواسطى: هو الخالق ابتداء والمربى غذاء والغافر انتهاء. وهو اسم الله الأعظم، والعالم كل ما علم به الخالق من الأجسام والجواهر والأعراض، أو كل موجود سوى الله تعالى سمى به؛ لأنه علم على وجوده. وإنما جمع بالواو والنون - مع أنه يختص بصفات العقلاء أو ما فى حكمها من الأعلام - لما فيه من معنى الوصفية وهى الدلالة على معنى العلم.

●● ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ذكرهما قد مر، وهو دليل على أن التسمية ليست من الفاتحة؛ إذ لو كانت منها لما أعادهما؛ لخلو الإعادة عن الإفادة (٥).

●● ﴿مَالِكِ﴾ عاصم[6]. وعلى[7] ملك غيرهما وهو الاختيار عند البعض؛ لاستغنائه عن

=أهل السنة والجماعة؛ إلا إنهم قدموا للإسلام خدمات جليلة بأنهم ردوا على شبه المشككين الكافرين، ومن العلماء من فسقهم، ومنهم من كفرهم.

الملل والنحل (٣/ ١٤٦).

(١) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب، أبو وهب الجمحى، القرشى وقيل: أبو أمية. قتل أبوه يوم بدر كافراً، وأسلم هو بعد الفتح، وكان من المؤلفة، وشهد اليرموك. كان من أشراف قريش فى الجاهلية والإسلام، قيل إنه مات أيام قتل عثمان، وقيل: مات سنة ٤١هـ، وقيل: سنة ٤٢هـ.

تهذيب التهذيب (٢/ ٥٥٣).

(٢) هو أبو سفيان، صخر بن حرب بن أمية بن عبد مناف، والد معاوية، ووالد أم المؤمنين «أم حبيبة». كان داهية من دواهى العرب، وكان رئيس المشركين يوم أحد، وزعيم الأحزاب يوم الخندق، أسلم زمن الفتح، وله مواقف مشهورة فى الجاهلية والإسلام، كانت ولادته قبل عام الفيل بعشر سنين، واختلف فى سنة وفاته، وخلاصته: أنه توفى بعد عام ٣٠هـ بقليل.

تهذيب التهذيب (٢/ ٥٤٤، ٥٤٥).

(٣) سورة «يوسف»، الآية (٢٣). (٤) سورة «يوسف» الآية (٥٠).

(٥) يحاول الإمام النسفى - رحمه الله - هنا أن ينتصر لمذهبه الحنفى القائل بأن البسملة ليست آية من الفاتحة، ولكن رُدّ عليه بأن التكرار هنا للمبالغة والتأكيد على رحمة الله التى وسعت كل شىء، وبدليل قوله تعالى فى سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

(٦) هو: عاصم ابن بهدلة، وهو ابن أبى النجود الأسدى، مولاهم، الكوفى، أبو بكر المقرى، وقيل: إن بهدلة هى أمة، وهو أحد القراء السبعة، وهو يعد من التابعين، ت: ١٢٧هـ.

تهذيب التهذيب (٣/ ٢٩، ٣٠).

- قال فى الميزان: ثبت فى القراءة، وهو فى الحديث دون الثبت، صدوق، يهم. وفى التقريب: صدوق، حجة فى القراءة، من السادسة.

(٧) على بن حمزة بن عبدالله بن قيس بن فيروز الأسدى، مولاهم، الكوفى، الكسائى، الإمام،=

الإضافة ولقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[1] . ولأن كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا، ولأن أمر الملك ينفذ على المالك دون عكسه، وقيل: المالك أكثر ثوابا؛ لأنه أكثر حروفا، وقرأ أبو حنيفة والحسن[2] ـ رضى الله عنهما ـ : ملك ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أى يوم الجزاء، ويقال: كما تدين تدان[3]. أى: كما تفعل تجازى وهذه إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع كقولهم، يا سارق الليلة أهل الدار، أى: مالك الأمر كله فى يوم الدين، والتخصيص بيوم الدين؛ لأن الأمر فيه لله وحده، وإنما ساغ وقوعه صفة للمعرفة مع أن إضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية؛ لأنه أريد به الاستمرار فكانت الإضافة حقيقية فساغ أن يكون صفة للمعرفة، وهذه الأوصاف التى أجريت على الله سبحانه وتعالى ـ من كونه ربا أى مالكا للعالمين ومنعما بالنعم كلها ومالكا للأمر كله يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به فى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه.

●●﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (إيا) عند الخليل وسيبويه[4]: اسم مضمر، والكاف حرف خطاب عند سيبويه ولا محل له من الإعراب، وعند الخليل هو اسم مضمر أضيف إيا إليه؛ لأنه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل، وقال الكوفيون: إياك بكمالها اسم وتقديم المفعول لقصد الاختصاص، والمعنى: نخصك بالعبادة وهى أقصى غاية الخضوع والتذلل، ونخصك بطلب المعونة وعدل عن الغيبة إلى الخطاب للالتفات، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى

=أحد أئمة القراءة والتجويد فى بغداد، إلى جانب علو كعبه فى اللغة وعلومها، تميز بأنه أخذ كل علم على أيدى جهابذته؛ فأخذ القراءات عن حمزة الزيات، وأخذ علوم اللغة عن الخليل بن أحمد، وغيرهما، وكانت له مؤلفات كثيرة، ومناظرات شهيرة.

ولد سنة ١١٩هـ، وتوفى سنة بضع وثمانين ومائة، على خلاف.

تهذيب التهذيب (٤/ ١٩٧، ١٩٨).

(١) سورة «غافر»، الآية (١٦).

(٢) هو الإمام الزاهد، التابعى الجليل، الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى، اشتهر بعلمه وزهده وورعه؛ فقد كان إمام عصره فيها، له مناقب كثيرة، وسيرته شهيرة، كانت ولادته عام ٢٢هـ، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة ١١٠ هـ.

تهذيب التهذيب (١/ ٤٨١ ـ ٤٨٤).

(٣) هذا جزء من حديث نبوى شريف يقول فيه رسولنا ﷺ ـ: «البر لايبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان».

(٤) سيبويه، اسمه: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثى، أبو بشير، وهو إمام أهل النحو بلا منازع، مع أنه لم يكن عربيًا؛ بل إن أصله فارسى، له كتاب من أمهات الكتب فى العربية، أسماه: «الكتب»، ولد عام ١٤٨هـ وكانت وفاته حوالى عام ١٨٠ هـ، على خلاف فى ذلك.

الأعلام (٥/ ٨١).

الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(١). وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾(٢). وقول امرىء القيس(٣):

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخليّ ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءنى وخبرته عن أبى الأسود

فالتفت فى الأبيات الثلاثة حيث لم يقل ليلى وبت وجاءك، والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل فى القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ لاستلذاذ إصغائه، وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح إلا للحذاق المهرة والعلماء النحارير وقليل ما هم، ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك. وقدمت العبادة على الاستعانة؛ لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة، أو لنظم الآى كما قدم الرحمن، وإن كان الأبلغ لا يقدم. وأطلقت الاستعانة لتتناول كل مستعان فيه، ويجوز أن يراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادات ويكون قوله: ﴿اهْدِنَا﴾ بيانا للمطلوب من المعونة كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا:

●●﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: ثبتنا على المنهاج الواضح؛ كقولك للقائم: قم حتى أعود إليك أى: اثبت على ما أنت عليه أو اهدنا فى الاستقبال كما هديتنا فى الحال، وهدى يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد، فأما تعديه إلى مفعول آخر فقد جاء متعدياً إليه بنفسه كهذه الآية، وقد جاء متعدياً باللام وبإلى كقوله تعالى: ﴿هَدَانَا لِهَذَا﴾(٤). وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٥)، والسراط: الجادة من سرط الشىء إذا ابتلعه كأنه يسرط السابلة إذا سلكوه، والصراط من قلب السين صادا لتجانس الطاء فى الإطباق لأن الصاد والضاد والطاء والظاء من حروف الإطباق، وقد تشم الصاد صوت الزاى؛ لأن الزاى إلى الطاء أقرب لأنهما مجهورتان، وهى قراءة حمزة(٦)، والسين قراءة ابن كثير(٧) فى كل القرآن، وهى الأصل فى الكلمة والباقون بالصاد

(١) سورة «يونس»، الآية (٢٢). (٢) سورة «فاطر»، الآية (٩).
(٣) امرؤ القيس من أشهر شعراء العصر الجاهلى، وممن قالوا الشعر فى جميع الأغراض، وله ديوان شعر مطبوع ومحقق.
(٤) سورة «الأعراف»، الآية (٤٣). (٥) سورة «الأنعام»، الآية (١٦١).
(٦) إمام أهل القراءات، حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات القارىء، أبو عمارة الكوفى، التيمى، مولاهم، لقب بـ «الزيات»؛ لأنه كان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان، وهو أحد القراء السبعة، وكان عالماً، ورعاً، صالحاً، صدوقاً، ولكن سىء الحفظ فى الحديث، ولذلك لم يوثقه أكثر أهل الحديث. ولد سنة ٨٠هـ، وتوفى سنة ١٥٦هـ. تهذيب التهذيب (٢/١٩، ٢٠).
(٧) هو عبدالله بن كثير الدارمى، المكى، أبو معبد القارىء، روى عن أبى الزبير، ومجاهد، وقرأ =

الخالصة وهى لغة قريش وهى الثابتة فى المصحف الإمام[1]. ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل، والمراد به: طريق الحق، وهو ملة الإسلام.

●● ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الصراط، وهو فى حكم تكرير العامل وفائدته التأكيد والإشعار بأن الصراط المستقيم تفسيره صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده وهم المؤمنون أو الأنبياء - عليهم السلام - أو قوم موسى قبل أن يغيروا. ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم، يعنى: أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أوصفة للذين، يعنى: أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهى نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله والضلال، وإنما ساغ وقوعه صفة للذين - وهو معرفة وغير لا يتعرف بالإضافة - لأنه إذا وقع بين متضادين وكانا معرفتين تعرف بالإضافة نحو عجبت من الحركة غير السكون، والمنعم عليهم والمغضوب عليهم متضادان؛ ولأن الذين قريب من النكرة، لأنه لم يرد به قوم بأعيانهم، وغير المغضوب عليهم قريب من المعرفة للتخصيص الحاصل له بإضافته؛ فكل واحد منهما فيه إبهام من وجه واختصاص من وجه فاستويا، (عَلَيْهِمْ) الأولى محلها النصب على المفعولية، ومحل الثانية الرفع على الفاعلية. وغضب الله: إرادة الانتقام من المكذبين وإنزال العقوبة بهم وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على ما تحت يده. وقيل: المغضوب عليهم هم اليهود، لقوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[2]. والضالون هم النصارى؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾[3]، (وَلَا) زائدة عند البصريين للتوكيد، وعند الكوفيين هى بمعنى غير. (آمين): صوت سمى به الفعل الذى هو استجب كما أن رويد اسم لأمهل. وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - سألت رسول الله ﷺ عن معنى آمين؛ فقال: «افعل»(٤). وهو مبنى وفيه لغتان: مد ألفه وقصرها - وهو الأصل - والمد بإشباع الهمزة قال:

يا رب لا تسلبنى حبها أبدا ويرحم الله عبداً قال آمينا

وقال: أمين فزاد الله ما بيننا بعدا، قال عليه السلام: «لقننى جبريل «آمين» عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب» وقال: إنه كالختم على الكتاب»[5] وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف.

=عليه القرآن، وهو أحد القراء السبعة، وهو قارئ أهل مكة، وكان - رحمه الله - عطاراً.

ولد عام ٤٥ هـ، وكانت وفاته عام ١٢٠هـ.

تهذيب التهذيب (٣/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(١) المصحف الإمام: هو المصحف الذى جمع عليه عثمان بن عفان المسلمين، وأمر الناس أن يقرؤوا به دون غيره؛ درءاً للفرقة والاختلاف بين المسلمين.

(٢) سورة «المائدة»، الآية (٦٠). (٣) سورة «المائدة»، الآية (٧٧).

(٤) أخرجه الثعلبى من رواية أبى صالح عنه، بإسناد واه.

(٥) قال ابن حجر: لم أجده هكذا - أى بلفظه - وذكر ما وجده عند ابن أبى شيبة وأبى داود والطبرانى.

(سورة البقرة مدنية وهى مائتان وست أو سبع وثمانون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

●●﴿الٓمٓ﴾ ونظائرها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التى منها ركبت الكلم، فالقاف تدل على أول حروف قال، والألف تدل على أوسط حروف قال، واللام تدل على الحرف الأخير منه، وكذلك ما أشبهها، والدليل على أنها أسماء أن كلا منها يدل على معنى فى نفسه ويتصرف فيها بالإمالة والتفخيم وبالتعريف والتنكير والجمع والتصغير، وهى معربة، وإنما سكنت سكون زيد وغيره من الأسماء حيث لا يمسها إعراب لفقد مقتضيه، وقيل: إنها مبنية كالأصوات نحو غاق فى حكاية صوت الغراب، ثم الجمهور على أنها أسماء السور، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: أقسم الله بهذه الحروف. وقال ابن مسعود[1] ـ رضى الله عنه ـ : إنها اسم الله الأعظم. وقيل: إنها من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها، وقيل: ورود هذه الأسماء على نمط التعديد كالإيقاظ لمن تحدى بالقرآن وكالتحريك للنظر فى أن هذا المتلو عليهم ـ وقد عجزوا عنه عن آخرهم ـ كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم؛ ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا إن لم تتساقط مقدرتهم دونه ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة وهم أمراء الكلام إلا لأنه ليس من كلام البشر. وأنه كلام خالق القوى والقدر، وهذا القول من الخلاقة بالقبول بمنزل، وقيل: إنما وردت السور مصدرة بذلك؛ ليكون أول ما يقرع الأسماء مستقلاً بوجه من الإغراب وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامى الحروف فإنه كان مختصا بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستبعداً من الأمى التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، فكان حكم النطق بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأقاصيص المذكورة فى القرآن التى لم تكن قريش ومن يضاهيهم فى شىء من الإحاطة بها فى أن ذلك حاصل له من جهة الوحى وشاهد لصحة نبوته. واعلم أن المذكور فى الفواتح نصف أسامى حروف المعجم: وهى الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، وهى مشتملة على أنصاف أجناس الحروف؛ فمن المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن المجهورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها: الألف

---

(١) هو الصحابى الجليل القدر، العالى المكانة: عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب، أبو عبدالرحمن الهذلى، من السابقين إلى الإسلام، هاجر الهجرتين، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان ملازماً له؛ حتى إنه لقب بـ: صاحب نعل رسول الله ﷺ، وهو من أجل علماء الصحابة، حتى قيل: لا إجماع بدون ابن مسعود.

كانت وفاته ـ على الأرجح ـ سنة ٣٢هـ، عن نيف وستين سنة.

تهذيب التهذيب (٣/ ٢٦٧، ٢٦٨).

والكاف والطاء والقاف، ومن الرخوة نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون، ومن المطبقة نصفها الصاد: والطاء، ومن المنفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون، ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء، ومن المنخفضة نصفها الألف واللام الميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون، ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء، وغير المذكورة من هذه الأجناس مذكورة بالمذكورة منها. وقد علمت أن معظم الشيء ينزل منزلة كله، فكأن الله تعالى عدَّد على العرب الألفاظ التى منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما مر من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم. وإنما جاءت مفرقة على السور، لأن إعادة التنبيه على المتحدى به مؤلفاً منها لا غير أوصل إلى الغرض، وكذا كل تكرير ورد فى القرآن فالمطلوب منه تمكين المكرر فى النفوس وتقريره، ولم تجيء على وتيرة واحدة بل اختلفت أعداد حروفها مثل ص و ق و ن وطه وطس ويس وحم والم والر وطسم والمص والمر وكهيعص وحم عسق؛ فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة كعادة افتنانهم فى الكلام. وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف سلك فى الفواتح هذا المسلك، والم آية حيث وقعت، وكذا المص آية، والمر لم تعد آية، وكذا الر لم تعد آية فى سورها الخمس، وطسم آية فى سورتيها، وطه ويس آيتان، وطس ليست بآية، وحم آية فى سورها كلها، وحم عسق آيتان، وكهيعص آية، وص و ن و ق ثلاثتها لم تعد آية وهذا عند الكوفيين، ومن عداهم لم يعد شيئاً منها آية. وهذا علم توقيفى لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، ويوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده وذلك إذا لم تحمل أسماء للسور، ونعق بها كما ينعق بالأصوات أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ﴾(١). أى هذه الم ثم ابتدأ فقال: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(٢) ولهذه الفواتح محل من الإعراب فيمن جعلها أسماء للسور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام وهو الرفع على الابتداء أو النصب أو الجر؛ لصحة القسم بها وكونها بمنزلة الله، والله على اللغتين ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أن يكون لها محل فى مذهبه كما لا محل للجملة المبتدأة وللمفردات المعدودة.

** ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أى ذلك الكتاب الذى وعد به على لسان موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ أو ذلك إشارة إلى الم، وإنما ذكرَّ اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة؛ لأن الكتاب إن كان خبره كان ذلك فى معناه ومسماه مسماه فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير والتأنيث، وإن كان صفته فالإشارة به إلى الكتاب صريحاً؛ لأن اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له، تقول: هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا، ووجه تأليف ذلك الكتاب مع الم ـ إن جعلت الم اسماً للسورة ـ أن يكون الم مبتدأ وذلك مبتدأ ثانياً والكتاب خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول، ومعناه أن

---

(١) سورة «آل عمران» الآيتان: (١، ٢).
(٢) سورة «آل عمران»، الآية: (٢).

ذلك هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب فـى مقابلته ناقص، كما تقول: هو الرجل، أى: الكامل فى الرجوليـة الجامع لما يكون فى الرجال من مرضيات الخصال، وأن يـكون الم خبر مبتدإ محذوف، أى: هذه الم جـملة، وذلك الكتاب جمـلة أخرى، وإن جعلت الم بمنـزلة الصوت كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أى: يذلك الـكتاب المنزل هو الكتاب الكامل. ﴿لا رَيْبَ﴾ لاشك، وهو مصدر رابنـى إذا حصل فيك الريبـة، وحقيقة الريبة قـلق النفس واضطرابـها، ومنه قولـه ـ عـليـه السـلام ـ: «دع ما يريبـك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة، وإن الصـدق طمأنينة»[1]. أى: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستـقر، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن، ومنه ريب الزمان وهو ما يقـلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه، وإنما نـفى الريب على سبيل الاستغراق، وقد ارتاب فيه كثـير، لأن المنفى كونه متعلقاً للريب ومظـنة له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهـان بحيث لا ينبغى لمرتـاب أن يقع فيه لا أن أحداً لا يرتاب، وإنما لـم يقل: لا فيه ريب كما قال ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾[2]؛ لأن المراد فى إيلاء الريب حرف النفـى: نفى الريب عنه وإثبات أنه حق لا باطل كـما يزعم الكفار، ولو أولى الظـرف لقصد إلى ما يبعد عن المـراد وهو أن كتاباً آخر فيه ريب لا فيه كما قصد فى قوله تعالى: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هى، والوقف على «فيه» هو المشهور، وعن نافع[3] وعاصم أنهما وقفا على «ريب» ولابد للواقف من أن ينوى خبراً، والتقدير: لا ريب فيه. ﴿فِيهِ هُدًى﴾ فيه بإشباع كل هاء مكى[4] ووافقه حفص[5] فى ﴿فِيهِ مُهَانًا﴾[6] وهو الأصل كقولك: مررت به ومن عنده وفى داره، وكما لا يقال فى داره ومن عنده وجب أن لا يقال فيـه. وقال سيبويه: ما قاله مؤد إلى الجمع

---

(١) أخرجه الترمذى فى آخر الطب، والحاكم فى البيوع، والطبرانى والبزار.

(٢) سورة «الصافات»، الآية (٤٧).

(٣) هو: نافع بن عبدالرحـمن بن أبى نعيم، القارىءالمدنى، أبو رويم وهو غيـر نافع مولى ابن عمر؛ فنافع القارئ روى عن نافع مولى ابن عمر، وهو من أقدم القراء السبعة.

يتلخص الحكم فيـه فى قول أبى طالب عن أحمد: «كان يؤخذ عنه القـرآن، وليس فى الحديث بشىء» اهـ. وهذا شأن غالب القراء [راجع ترجمة القراء فى الصفحات السابقة].

كانت وفاته عام ١٦٩هـ.

تهذيب التهذيب (٥/ ٦٠٢، ٦٠٣).

(٤) هو: مكى بن أبى طالب، حـموش بن مختار الأندلسى، القيسى، كنيتـه: أبو محمد، كان له باع طويل فى علوم القراءات والتفسير، وكذلك علوم اللغة.

ولد عام ٣٥٥هـ، وتوفى عام ٤٣٧هـ (الأعلام (٧/ ٢٨٦).

(٥) هو حفص بن سليمان، الأسدى، أبو عمر، البزار، الكوفى قرأ على عاصم بن أبى النجود، وكان أعلم تلاميذه بقراءته، وكان ابن امرأته، وروايته عنه أضبط الروايات.

ولد سنة ٩٠هـ، وتوفى سنة ١٨٠هـ.

تهذيب التهذيب (١/ ٥٥٨)، ٥٥٩).

(٦) سورة «الفرقان»، الآية (٦٩).

بين ثلاثة أحرف سواكن: الياء قبل الهاء، والهاء إذ الهاء المتحركة فى كلامهم بمنزلة الساكنة؛ لأن الهاء خفية والخفى قريب من الساكن ـ والياء بعدها، والهدى مصدر على فعل؛ كالبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾[1]. و إنما قيل: هدى ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والمتقون مهتدون، لأنه كقولك للعزيز المكرم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة على ما هو ثابت فيه واستدامته؛ كقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2]. أو لأنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى متقين، كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[3]. وقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض. فسمى المشارف للقتل والمرض قتيلاً ومريضاً، ولم يقل: هدى للضالين، لأنهم فريقان؛ فريق علم بقاؤهم على الضلالة وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى، وهو هدى لهؤلاء فحسب؛ فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التى ذكرنا، فقيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع أن فيه تصديراً للسورة التى هى أولى الزهراوين وسنام القرآن بذكر أولياء الله، والمتقى فى اللغة اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى، ففاؤها واو ولامها ياء، وإذا بنيت من ذلك افتعل قلبت الواو تاء وأدغمتها فى التاء الأخرى، فقلت: اتقى، والوقاية فرط الصيانة، وفى الشريعة: من يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك، ومحل هدى الرفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لاريب فيه لذلك، أو النصب على الحال من الهاء فى فيه. والذى هو أرسخ عرفاً فى البلاغة أن يقال: إن قوله الم جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، وذلك الكتاب جملة ثانية، ولاريب فيه ثالثة، وهدى للمتقين رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة، والرابعة بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريرا لجهة التحدى، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلا بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، وقيل لعالم: فيم لذتك؟ قال: فى حجة تتبختر اتضاحا وفى شبهة تتضاءل افتضاحا. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم الرشيق من نكتة ذات جزالة؛ ففى الأولى الحذف والرمز إلى المطلوب

---

(١) سورة «البقرة» الآية (١٦).

(٢) سورة «الفاتحة»، الآية (٦).

(٣) الحديث متفق عليه من حديث أبى قتادة، رضى الله عنه.

بألطف وجه، وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة، وفى الثالثة ما فى تقديم الريب على الظرف، وفى الرابعة الحذف، ووضع المصدر الذى هو هدى موضع الوصف الذى هو هاد؛ كأن نفسه هداية، وإيراده منكرا ففيه إشعار بأنه هدى لا يكتنه كنهه، والإيجاز فى ذكر المتقين كما مر.

●●﴿الَّذِينَ﴾ فى موضع رفع أو نصب على المدح أى: هم الذين يؤمنون أو أعنى: الذين يؤمنون أو هو مبتدأ وخبره أولئك على هدى، أو جر على أنه صفة للمتقين، وهى صفة واردة بيانا وكشفاً للمتقين؛ كقولك: زيد الفقيه المحقق، لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من الإيمان الذى هو أساس الحسنات، والصلاة والصدقة؛ فهما العبادات البدنية والمالية وهما العيار على غيرهما، ألا ترى أن النبى ـ عليه السلام ـ سمى الصلاة عماد الدين[1]. وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة[2]. وسمى الزكاة قنطرة الإسلام[3]؛ فكان من شأنهما استتباع سائر العبادات، ولذلك اختصر الكلام بأن استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها مع ما فى ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين أوصفة مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها كقولك: زيد الفقيه المتكلم الطبيب، ويكون المراد بالمتقين الذين يجتنبون السيئات. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون، وهو إفعال من الأمن، وقولهم: آمنه أى: صدقه وحقيقته أمنه التكذيب والمخالفة، وتعديته بالباء لتضمنه معنى أقر وأعترف. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بما غاب عنهم مما أنبأهم به النبى ـ عليه السلام ـ من أمر البعث والنشور والحساب وغير ذلك، فهو بمعنى الغائب تسمية بالمصدر من قولك: غاب الشىء غيباً؛ هذا إن جعلته صلة للإيمان، وإن جعلته حالا كان بمعنى الغيبة والخفاء أى: يؤمنون غائبين عن المؤمن به وحقيقته متلبسين بالغيبة، والإيمان الصحيح أن يقر باللسان ويصدق بالجنان، والعمل ليس بداخل فى الإيمان. ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أى: يؤدونها، فعبر عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيام بعض أركانها كما عبر عنه بالقنوت وهو القيام، وبالركوع والسجود والتسبيح لوجودها فيها، أو أريد بإقامة الصلاة تعديل أركانها من أقام العود إذا قومه، أو الدوام عليها والمحافظة: من قامت السوق إذا نفقت؛ لأنه إذا حوفظ عليها كانت كالشىء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات، وإذا أضيعت كانت كالشىء الكاسد الذى لا يرغب فيه، والصلاة فعلة من صلى كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى حرك الصلوين أى: الأليتين؛ لأن المصلى يفعل ذلك فى ركوعه وسجوده، وقيل للداعى مصل تشبيها له فى تخشيعه بالراكع والساجد. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم، وما بمعنى الذى. ﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون، أدخل من التبعيضية صيانة لهم عن التبذير المنهى عنه[4]، وقدم المفعول دلالة على كونه أهم والمراد به الزكاة، لاقترانه بالصلاة التى هى

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب من طريق عكرمة، عن عمر رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن جابر بلفظ: «وبين الرجل وبين الكفر تركه الصلاة».

(٣) رواه إسحاق فى مسنده من حديث أبى الدرداء.

(٤) ورد النهى عن التبذير فى الآيتين ٢٦ ـ ٢٧ من سورة الإسراء حيث يقول الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.